الغربة والحنين في النص الشعـري الأندلسي
بين الثابت والمتغير

بوفلاقةسيف الاسلام : أستاذ مساعد "أ"
كلية الآداب واللغات، جامعةعنابة

مقدمة :

يجمع الدارسون على أن الأشعار الأولى التي كُتبت في الأندلس، والتي أبدعها أوائل الأندلسيين الذين دخلوا إلى الأندلس، كانت تقطر حنيناً جارفاً إلى بلادهم في المشرق، وقد تعددت وتنوعت أسباب الحنين عند الشعراء الأندلسيين، من مرحلة إلى أخرى، بحسب تنوع الظروف واختلافها، فهناك الدوافع الموضوعية التي نجمت عن فقدان نعمة الاستقرار، وعدم وجود مظاهر تبرز الوحدة والتضامن، بعد أن انهارت سلطة الخلافة الأموية والعامرية بالأندلس، فالإنسان بطبيعته متعلق بوطنه، ومحب له، ومن بين الآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد شدة تعلق المرء بوطنه قول الله سبحانه وتعالى: (ولَو أنَّا كَتَبنَا عليهِم أنِ اقتُلُوا أنفُسَكُم أو أخرُجُوا مِن دياركُم مَّا فعلُوهُ إلا قَلِيلٌ منهُم) [1] .

ولاشك في أن التعلق بالمكان قد احتل في وجدان الإنسان العربي مكانة عظيمة، والشاعر الأندلسي في الكثير من الأحايين أجبرته النكبات، والانقسامات،والفتن، على الارتحال والهجرة، لذلك نلفي ظاهرة الحنين اليائس إلى الأوطان في الشعر الأندلسي، وهي الظاهرة التي يرى بعض الباحثين أنها خاصة بالأندلسيين [2]

الغربة والحنين في الشعر الأندلسي بين التقليد والتجديد :

إن شعر الغربة والحنين في الأندلس، يعد من الموضوعات التي توسعت، فلم يبق على نهج النموذج المشرقي، فلا يختلف اثنان في أن المشارقة كان لهم فضل السبق في شعر الحنين والغربة، و لايخامر القارئ للشعر الأندلسي أدنى شك في أن الأندلسيين قد توسعوا في شعر الغربة والحنين أكثر من المشارقة، ويرُد الكثير من المهتمين ذلك الواقع إلى أمرين:

أولهما التقليد الذي جرى عليه الأندلسيون من الرحلة المطردة إلى المشرق لطلب العلم، وثانيهما أن معظم من رحلوا من الأندلس- وما أكثرهم- كانوا من الشعراء، والمبدعين،من ذوي القلوب والأقلام

الشاعرة، فإذا تأملنا في هذين الأمرين، أدركنا السبب الرئيس الذي أدى إلى حدوث فيض غزير في شعر الاغتراب الحنين، ويدل هذا الأمر في الوقت نفسه على توسعهم في هذا الفن الشعري[3]

إن الأندلسيين قد شُغفوا بتقديس الماضي التليد، والسعي إلى المحافظة عليه، وهذا الأمر يندرج في إطار الدوافع النفسية، والاجتماعية لشعر الغربة والحنين، فقد برز بإلحاح من خلال الكتب التي تُعنى بالسير والتراجم، التي ألفها الأندلسيون أنهم يُركزون على الاحتفاظ بماضيهم وأعلامهم، وهذا ما فسره بعض المهتمين بالاغتراب والحنين، على أنه يدل على:

1- اعتزاز الأندلسيين بعلمائهم وأعلامهم، وسعيهم إلى تخليد آثارهم، إلى حد أن من ليس أندلسياً، كان يُدرج في باب خاص من هذه التراجم، يُسمى ب(باب الغرباء)، ولايشفع له اسمه (أحمد) أو (محمد) بإدماجه مع الأندلسيين الذين يمتلكون الاسم نفسه.

2- يدل كذلك على وجود هاجس خفي بالخوف يقلقهم، إضافة إلى شعورهم بأن وجودهم سيصبح في خبر كان ذات يوم من الأيام، وهذا الشعور ينطلق من تأملهم للفتن والأزمات التي مروا بها ويمرون بها لحظة وجودهم على أرض الأندلس[4]

والقارئ لأشعارهم يُلفي أن نزعة الحنين، ضاربة بجذورها في أعماق المجتمع الأندلسي، فنلاحظ أن الإحساس بالغربة، يضرب بجذوره في أعماق الشاعر الأندلسي، حتى حين يرحل من مدينة إلى أخرى، داخل الأندلس نفسها، والأمثلة على ذلك متعددة، ومتنوعة في كتب التراجم وتاريخ الأدب، سواء عند ابن حزم، وابن زيدون، وابن شهيد، وابن سعيد، والرصافي البلنسي، وابن الخطيب، ويوسف الثالث، وغيرهم كثير، كلهم حنوا إلى المدينة الأصلية، ومكان ولادتهم، كما تدل هذه الأشعار، أنهم حينما يعمدون إلى تصوير الغربة، ومعاناة المغترب، على عدم استطاعتهم التخلص من النزعة التشاؤمية الحادة، ومن الأحزان العميقة التي تكتنف مشاعرهم[5]

تجليات الغربة والحنين من خلال نماذج شعرية أندلسية مختارة:

إن شعر الحنين والغربة عند الأندلسيين يدور على موضوعات متعددة، منها: الشوق إلى الأوطان، والشكوى من الغربة، والتشوق إلى الأهل، وتصوير الديار والأيام الخوالي، وإيثار الوطن على الاغتراب، ومن بين الأشعار التي تُبرز التشوق إلى الأوطان، قول ابن حمديس بعد أن نزح عن صقلية إلى إفريقيا سنة:471هـ، وهو في ريعان الشباب، قال هذه الأبيات مازجاً فيها بين الحنين والطبيعة (من الكامل):

إني لأبسطُ للقبولِ إذا سَرت خدّي وألقاها بتقبيلِ اليدِ

وأضُمُّ أجنابي على أنفاسها كيما تُبرِّد حرّ قلبٍ مُكمدِ
مَسحت كراقيةِ عليَّ بكفها ونقابُها يدٌّ من الزهر النّدي
وعرفتُ في الأرواح مسراها كما عرف المريضُ طبيبه في العُوَّدِ
ما لي أطيلُ إلى الديارِ تغرُّباً أفبالتغرّبِ كان طالع مولدي[6]

ومن بين الأشعار التي تتضح فيها شكوى الشاعر من الغربة، قول الشاعر العنسي بعد أن هجر الأندلس إلى مصر، وقد أدركته وحشة الغربة، وأثارت فيه الأشواق والحنين الشديد إلى الربوع الأندلسية (من الكامل):

أصبحتُ أعترضُ الوجوه ولا أرى ما بينها وجهاً لمن أدريهِ
عَوْدي على بَدئي ضلالاً بينهم حتى كأني من بقايا التّيه
إن عاد لي وطني اعترفت بحقّه إن التغرب ضاع عمري فيه[7]

ومن بين الأبيات التي كتبها محمد بن زهير وهو يتشوق إلى أهله في إشبيلية بعد أن سافر إلى مراكش، قوله :

ولي واحدٌ مثلُ فرخ القطاةِ صغيرٌ تخلّقتُ قلبي لديهِ
وأُفردتُ عنه فيا وحشتي لذاك الشُّخيصُ وذاك الوُجيهُ
تشوّقني وتشوّقتُهُ فيبكي عليَّ وأبكي عليه
وقد تعب الشوقُ ما بيننا فمنه إليَّ ومني إليه[8]

من خلال هذه الأبيات يُعبر الشاعر عن شوقه الشديد إلى ابنه الصغير الذي تركه في إشبيلية، وقد أفصح الشاعر عن هواجسه، وأشواقه بأسلوب مباشر، وواضح.

ومن بين الأشعار التي كتبها ابن حزم في الشوق والحنين، قوله:

سقى اللّهُ أياماً مضت ولياليا تحاكي لنا النيلوفر الغضُ في النشر
فأوراقه الأيامُ حسناً وبهجة وأوسطهُ الليلُ المقصرُ للعمر
لهونا بها في غمرةٍ وتآلف تمُرُ فلاندري وتأتي فلا ندري
فأعقبنا منه زمان كأنه ولاشك حسن العقد أعقب بالغدر[9]

يبدو ابن حزم من خلال هذه الأبيات أنه مغرم باللون والشكل والألفاظ الرقيقة، إذ تستهويه الأزهار والخمائل، بيد أنه يتحرك في إطار يتجلى من خلال تأثره بالبيئة الأندلسية، حيث يشبه الأيام الهانئة بالنيلوفر[10]

وفي شعر الجزار السرقسطي نجد مجموعة من الأشعار التي يظهر فيها الاغتراب، واغترابه يرجع إلى جملة من العوامل لم تتجاوز ضياع شخصيته الأدبية، وتغير أوضاعه نحو الأسوأ، فضلاً عن تدهور الأدب في عصره، فهو يبدو في الكثير من أشعاره ساخطاً على الدنيا التي آلت إلى غير أصحابها من المبدعين والأنام المتميزين[11]

ومن شعره الذي يتجلى فيه الاغتراب قوله:

مابال دنياي الدنية لم تقم أودي أكل مفوه محروم؟
لا تجزعي يا نفس إن خطب غداً فالحر يعثر تارة ويقوم
فكذا الزمان بأهله متقلب لا البؤس فيه ولا النعيم يدوم[12]

والأعمى التطيلي واحد من الشعراء الذين نظموا في الاغتراب، حيث تتجلى في شعره الشكوى من الدهر، فقد أثرت عاهته عليه بشكل كبير، ودفعته نحو الغربة والاغتراب، ويُضاف إلى ذلك المعيشة الصعبة التي كان يعيشها، وقد ظهر الاغتراب بشكل جلي في قصائده المدحية، ومن بين الأبيات التي يشتكي فيها من إشبيلية بعد أن قضى أكثر أيامه فيها قوله:

نبتْ بي حمصٌ جادها كلُّ مرهم تُهلُّ الربا بالشكرِ أيّان يَهمعُ
وكُنت أخشى أن أحُل ببلدةٍ بها غصصٌ من أهلها وهي بَلقعُ[13]

وكثيراً ما يُعبر الأعمى التطيلي عن آلامه وأحزانه من الإقامة بمدينة إشبيلية، وعدم قدرته على مغادرتها، حيث يقول:

مَللتُ حمصَ فلو نَطقتْ كما نطقتْ تلاحينا على قَدرِ
وسوّلت لي نفسي أن أُفارقها والماءُ في المزن أصفى منه في الغدر
هيهاتَ بل ربّما كان الرحيل فدا ك المالِ أحيا به فقراً من العُمرِ
كم ساهرٍ يستطيلُ الليل من دنفٍ لم يدرِ أن الردى آتٍ، مع السّحر[14]

لقد وردت عدة إشارات في شعر الأعمى التطيلي تؤكد على مدى غربته، وحزنه الشديد على الأوضاع التي يعيشها في إشبيلية، والتي يظهر فيها وكأنه مغترب، فالتطيلي عبر في أشعاره عن حزنه من نزوحه عن مدينته التي تمثل وطنه، وكانت مصيبة النزوح عن الوطن من أكبر المصائب التي ابتلي بها، إذ يقول:

أما اشتفت مني الأيامُ في وطني حتى تضايق فيما عن من وطر
ولا قضت من سوادِ العينِ حاجتها حتى تكر على ماكان في الشعر[15]

إن جميع القرائن تؤكد على أن الأعمى التطيلي يعني بالوطن هنا مدينة أو قرية، قد تكون مدينته (تطيلة) التي فارقها، فقد صرح عدة مرات بأنه متبرم من الإقامة في إشبيلية،

وهو يُفكر في هجرتها ومغادرتها، نظراً لغربته فيها، وضعف علاقته بالناس فيها، وكل هذه الدلائل تؤكد أن التطيلي لم يكن يشكو فقدان منزله، وإنما يتحسر لغيابه عن بلدته، فحياة التطيلي من خلال أشعاره تبدو ملآى بألوان الكآبة والحزن الشديد، فلا يُمكن لكل من يقرأ أشعاره أن يعتقد أن حياته كانت تتمتع بالأمن والاستقرار والاطمئنان، فقد كان فريسة للحرمان والعوز، وهدفاً قريباً في متناول الظالمين والمتسلطين، وقد تحدث ابن بسام عن مأساة رجل ضرير يدعى الأديب أبا جعفر الكفيف لعله التطيلي نفسه، فهذه الكنية تتكرر واللقب الذي يليها يُراد بهما التطيلي[16]

إن الشكوى من الفقر والعوز كانت أكثر معاني الشكوى عند الأعمى التطيلي، وهو في مدحه يسعى إلى التكسب، ونيل المساعدة من ممدوحيه، وهذا ما يؤشر على أن حياته وظروفه كانت صعبة للغاية، وكثيراً ما تظهر الشكوى في القصائد التي يمدح فيها، من أجل نيل العطف والشفقة، مثل قوله في قصيدة له:

لعلّكَ تُصغي يا ابنَ زُهرٍ على النوى فقد آن يَقضي ساهِمُ الوجهِ نا حِلُهْ
عليلٌ رأى الشكوى إليك شفاءهُ وأيقن أنّ الكتم لاشكّ قاتِلُهْ
بقيةَ دهرٍ طّالما عبثتْ بهِ يَدُ السقمِ حتى ليس يمثلُ ماثِلُهْ
رأى البرءَ في كفيكَ ملءَ جُفونهِ وقد رجفتْ أشجانُهُ وبلابِلُهْ[17]

ولا ريب في أن اغتراب الشاعر جاء متزامناً مع العصر الذي يعيش فيه، فقد ضاعت فيه دولة الشعر وأهلها، كما تأخر عن رتبته التي كان عليها في ظل حكم الطوائف، إذ أصابه الركود والضمور، وهذا ما زاد الشاعر ألماً وحزناً وحسرة[18]

ومن معاني الشكوى والاغتراب التي ظهرت في شعر الأعمى التطيلي، ماورد في قصيدة مدحية مجهولة الهوية، حيث صور مشاهد الوداع والفراق عن زوجته وطفله، حيث يقول:

أقولُ وقد هزّتني إليكَ أريحةٌ كما مال غصنٌ أو ترنّحَ نشوانُ
وفي المهدِ مبغومُ النداءِ وكلّما أهابَ بشوقي فهو قسق وسحبانُ
يجدُّ بقلبي حبُّه وهو لاعبٌ ويبعثُ همي ذكرهُ وهو جذلانُ
وأخرى قد استفَّ الزمانُ شبابَها ولم يُروِها إنّ الزمانَ لظمآنُ
حناها فأمستْ كالهلالِ وزادها صباح مشيبٍ غالها منهُ نُقصانُ[19]

وهناك من رد طابع الاغتراب والكآبة والحزن في شعر الأعمى التطيلي إلى حالة الركود الأدبي التي عانى منها الشعراء في عصر المرابطين، حيث يقول غارسيا غومس: «واجتهد نفر آخر من الشعراء في أن يتشبثوا بأذيال الزمن المولي ليمدوا في أجله على غير

جدوى...محاولين التكسب بشعرهم...وانقلبوا بحسرات وخيبة آمال عبروا عنها في أبيات مجهدة تنم عن حزن بالغ عميق، نذكر من بين هؤلاء الأعمى التطيلي»[20]

وقد أرجع البعض اغترابه إلى عاهته-كما ذكرنا سلفاً- أي أنه كان أعمى، حيث يشير الباحث الدكتور إحسان عباس إلى أن عاهته هي التي جعلته ينطوي على حزن عميق، ويُضاف إلى ذلك شعوره بأنه مهمش في الحياة[21]

وقد نبه ابن بسام في ذخيرته إلى أن الأعمى التطيلي تميز بأدبه البارع، ونظر في غامضه واسع، وفهم لا يجارى، وذهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال[22]، ولاريب في أن هناك جملة من العوامل التي تضافرت مع بعضها وشكلت اغترابه الحقيقي، «فهو إذا ابتلي بالعمى وصبر على بلائه. ابتلي بفقد أهله -زوجه- التي أحبها، فقد أمضت معه أيام البلوى، وصبرت عليها على الرغم من كون زوجها كان أديباً-شاعراً وأديباً ووشاحاً- ذا مكانة، وذا سمعة طيبة بين أهل الثقافة والعلم، ولو لم يحيا في ذلك العصر وتحت تلك السلطة، فاغترابه في وطنه -إشبيلية- واضح، وهذا الاغتراب الذي أثاره المكان لم يُنسه العمى وكثرة الشيب، وضيق المعاش،ويبدو أن السلطة التي آلت إلى غير أصحابها -مقدرة وإحكاماً- كانت شكوى التطيلي، وموقع اغترابه في قلبه، لاسيما أن هذه السلطة المتعسفة كانت في إشبيلية فزادت الأ مور سوءاً، وألفت بشاعرنا خصيم الزمان والمكان والناس»[23]

حيث يقول الأعمى التطيلي مُلمحاً إلى تلك السلطة وأصحابها:

إلى اللّه أشكُو الذي نحن فيه أسىً لا يُنهنهُ منهُ الأسى

على مثلِها فلتشقّ القلوبُ مكان الجيوب وإلا فلا

فَشاَ الظُلمُ واغترأشياعُهُ ولا مستغاث ولا مُشتكى[24]

وعن إشبيلية التي يصفها بحمص، يقول الأعمى التطيلي، وهو يتناص في هذا البيت مع المتنبي، بعد الآلام التي لقيها في مصر، حيث يقول الأعمى التطيلي:

وماذا بحمصٍ من المضحكاتِ ولكنّهُ ضحكٌ كالبُكا

كما وظف الشاعر الأعمى التطيلي في بعض الأبيات التي يتجلى فيها الاغتراب أسلوب المرأة اللائمة، وهو الأسلوب الذي اشتهر في الشعر العربي القديم، حيث جلب الرمز الموروث ووسمه بـ (زُهر)، وراح يُحاورها، ويتبادل معها الحديث، ويُبرز من خلال حديثه معها ما يشعر به من اغتراب، وآلام، حيث يقول:

هبّت تُعاتبُني زُهرٌ وقد علمت أن العتاب شجى في القلب أو شجبُ

قالت: قعدتَ وقامَ الناسُ كُلهم ألا يعلّك الإثراءُ والرتبُ

فقلتُ: كُفي عن مقارعتي في أزمةٍ ضاع في أثنائها الأدبُ[25]

من الواضح من خلال هذه الأبيات أن الشاعر قد أقام حواراً بسيطاً، بيد أنه دعمه بالجناس في أول الأبيات (شجى، شجب)، والتكرار بين (تعاتبني والعتاب)،أشاع جواً من أصوات العين والشين والجيم، ومن ثم ظهرت الأصوات المهموسة بكثرة، ولاسيما (التاء)، التي أغدقت على الأبيات حسرة، وأبقت فيها روحاً متألمة ومكلومة، وقد صور الفعل (هبت)، في بداية الأبيات مدى الركود والخمول الذي آل إليه الشاعر الأعمى التطيلي، وقد ذعرت لحاله المرأة -الرمز الوهمي- وطفقت تدعوه إلى أخذ مكانته الحقيقية في الحياة الاجتماعية والثقافية، فمثل هذه الصنعة -الحوار والحروف والرمز- لها القدرة على شرح حالة الشاعر في مقدمة القصيدة المدحية، لأن الممدوح لا يرى بُداً من تقديم يد المساعدة لذلك الأديب في ذلك العصر[26]

وما يتميز به الأعمى التطيلي هو أن أمداحه تطفو عليها نزعة الاغتراب والشكوى من الدهر،وهذا ما جعل الدكتورة فاطمة طحطح تؤكد على أن ما استنتجته أن أمداح الأعمى التطيلي أجدر أن تدخل في باب الشكوى منها في باب المدح، بل إنها تذهب إلى تعميم هذا الحكم على بعض قصائده في الخمر والغزل والمجون، ومثال ذلك قصيدته التي تُذكِّر ببعض قصائد أبي نواس،والتي من بين أبياتها:

أصبحينا بالله أم حكيم هذه أخريات زهر النجوم
بادريها من قبل أن يعزم الت حريم،إن الخلاف في التحريم
قد تولى شهر الصيام حميداً فاخلفيه فينا بفعل ذميم
ضيعي حرمة له كرمت ما كان عهدي في حفظها بكريم
من يُنادم على الحديث،فقد اخت لس الكأس من حديث النديم[27]

فقد سلك الأعمى التطيلي في قصيدته هذه ثلاث طرائق، للتعبير عن تجربته:

أولاً: عن طريق إبراز تجربته في إطار لغة مناقضة ومخالفة،أي في إطار لغة المجون والتهتك للتعبير عن تجربة مناقضة، تستدعي لغة أخرى،أي استعارة لغة من حقل إلى حقل آخر، أو من مجال إلى مجال آخر، وإحلال سياق محل سياق مناقض.

ثانياً: استعارة إطار القصائد المجونية، كما يتجلى هذا الأمر في تجربة أبي نواس، وشحنها بمضمون حزين ومؤلم في الباطن، تتجلى فيه المأساة، ويبدو فيه المجون في الظاهر (الوجه والقناع).

ثالثاً: توظيفه لعنصر السخرية من الأوضاع القائمة، ومن القيم والمبادئ، وهي سخرية من المواضعات، وسخرية من الماضي، ومن التراث والأسلاف، لكنها سخرية تخفي قلقاً

وُجودياً، ورؤية عبثية إلى الحياة، وقيم الناس، وما تواضعوا عليه، وليس سخراً سطحياً، يقصد به اللهو فقط.

هكذا نجد أن الشاعر، بتوظيفه لعنصر السخرية، وتحطيمه المجالات اللغوية، وتبادل السياقات، قد خلخل قصيدة المدح، وانزاح عن مضامينها، وحولها إلى قصيدة غربة واغتراب، كما أنه بإخفائه الوجه الحقيقي للتجربة والمضمون الجدي وراء لغة القناع من لغة المجون والاستهتار، قد حقق غاية فنية وجمالية عالية، كما حقق للغته درجة قصوى من الرمز، والتكثيف والإيحاء الذي يُقرأ بين السطور، فيقرأ الغربة والاغتراب، والضياع والثورة، والحنق واليأس [28]

ومن بين الكتب البارزة التي اهتمت بتخليد مآثر الأندلسيين كتاب «أعلام مالقة» لابني عسكر وخميس، والملاحظ في هذا الكتاب أن شعر الغربة والحنين، هو الذي حظي بحصة الأسد، حيث يقول أحد الباحثين عن هذا الأمر: « يُلاحظ أن شعر الغربة والحنين هو الأكثر، ولا غرابة في ذلك فقد كُتب على الأندلسيين أن يعيشوا هذه التجربة القاسية، إما بسبب الفتن، أو لأمور يُطلب فيها الشاعر، فيضطر إلى الاغتراب عن موطنه، أو قد يكون الاغتراب بسبب التشوق إلى الأماكن المقدسة، وقد كشف الاغتراب عن مشاعر التشوق إلى الأهل والوطن، وهوتشوق يُبين لك مدى الوحشة التي تتعمق الأندلسيين حين يغتربون عن أوطانهم، كما أن الاغتراب كان اتجاهاً عاماً تعمق إحساس الأندلسيين جميعاً، وقد طغى على كثير من شعرهم، بحيث شكل ظاهرة لها خصوصيتها، وإن كان قد كثُر بعد انفراط عقد الخلافة الأموية، والذي أريد قوله: إن هذا اللون الشعري يتميز بالحرارة الدافقة، والإحساس الفياض المرهف، وتغدو فيه الذات الشاعرة، وقد تعمقها التشاؤم، وسيطر عليها الأرق والقلق والضياع، وسادتها روح عدائية ضد الزمان»[29]

ومن بين القصائد التي وردت في كتاب «أعلام مالقة»، وتتجلى فيها مشاعر الغربة والحنين طافحة، قصيدة كتبها الشاعر أبو عبد الله بن سعد الأنصاري يُعبر فيها عن مشاعر الاغتراب التي كابدها بعد مغادرته مالقة بسبب الفتنة، حيثُ تتضح فيها آلامه النفسية، ويستعيد ذكرياته أيام السرور، ويعتبر العيش في غير بلاده أسراً وأسىً لايُطيقه، حيث يقول:

أعادَ اللهُ أيّام التلاقِي   كمَا كنّا بها قبلَ الفِراقِ
وأكمَلَ بالسُّرورِ لإيَاب نفسي   فقد آل السُّرورُ إلى محَاقِ
نَأى صبْري غَداة نأيْتُ عنكُمْ   وهَل تنْأى هُمُومِي واشْتِيَاقِي
لئنْ ضنَّ الأسَى بالصَّبْرِ عنِّي   فمَا ضنَّت بِأدْمُعِهَا مآقِي

كَأنِّي مُذ نَأيْتُ وَصِرتُ رهْناً بتُدْمِيرٍ أسيرٌ فِي وِثاقِ
أرَى لَيْلي عَلَيَّ إذا تَدَجَّى سَوَاءٌ والنَّهار بِمَا ألاقِي [30]

يتضح من خلال المعجم اللغوي الذي وظفه الشاعر، الطافح بالعبارات الرقيقة، والمُعبرة عن الأسى والألم أنه مكلوم للغاية، وحزين جداً، إذ يعتبر نفسه في سجن، إذ تغرب عن موطنه.

ومن بين النماذج التي وردت كذلك في كتاب «أعلام مالقة»، تصوير الشاعر ابن فطيس لمشاعر الاغتراب القاسية، التي جعلته يبيع ثياب ظهره، عندما فر عن مالقة لأمور خارجة عن إرادته، وقد شبه في هذين البيتين نفسه بالسيف الذي أكل غمده عندما باع هذه الثياب، حيث يقول:

لعمْرُكَ إن بِيعَتْ وَفِي دَارِ غُربةٍ ثِيَابِي أنْ ضَاقَت علي المَشَاكِلُ
فَمَا أنا إلا السَّيفُ يَأكُلُ غِمْدَهُ لَهُ حِليةٌ مِنْ نَفْسِهِ وَهوَ عَاطِلُ [31]

ولا شك في أن شعر السجن والأسر شديد الصلة بشعر الغربة والحنين، حيث إننا نلفي الشاعر يستعيد ذكرياته وهو في السجن، فيشعر بالغربة، ويُحس بالحنين للماضي الآفل، لذلك سنعرض مجموعة من النماذج لشعراء أندلسيين، ذاقوا مرارة السجن، فطفقوا يعبرون عنها بجوارحهم المكلومة، فتفجرت غربة مؤلمة وحنيناً طافحاً.

وتزداد أهمية موضوع السجن بالنسبة إلى الغربة والحنين، عندما نعلم أن هذا الموضوع يكتسي أهمية كبيرة، وهو واحد من الموضوعات المثيرة والمهمة في الأدب الأندلسي، ولا سيما أن عدداً غير قليل من شعراء الأندلس مروا بمحنة السجن، وشغلت تلك التجربة الموجعة حيزاً لا بأس به من أشعارهم،فتجربة السجن تبدو تجربة مختلفة عن العوالم الأخرى في الحياة، فهي محطة، وتجربة مغايرة تماماً لتجربة الحياة في عالم الحرية، فعالم السجن مختلف كلياً عن عالم الحياة الرحب الواسع، والحياة فيه لها طبيعة أيضاً مختلفة، تُختصر بكلمات البؤس، والقهر والعذاب الدائم، والضنى والشجن [32]

- تجربة المعتمد بن عباد:

فهذا المعتمد بن عباد الذي كان ملكاً، وشاءت الأقدار أن تتبدل به الأحوال، ويُزري به الدهر، فيُصبح أسيراً في أغمات،فقد كانت المأساة «عند بعض السجناء نقلة هائلة بين حياة العز والرفاه، وحياة الذل والشقاء، ولذلك شكلت صدمة كبرى في حياة ذوي المناصب من الملوك وكبار رجال الدولة الذين حال حالهم.

وتجربة المعتمد بن عباد مثال حي لمأساة كانت تتجدد يوماً بعد يوم على مدى سنوات سجنه، وكان ذلك بمثابة عاصفة مدمرة أطاحت بعرش البهاء والعز الذي تربّع عليه» [33].

ويتجلى هذا في قوله واصفاً الحال التي آل إليها، والوضعية المزرية التي صار غريباً فيها بعد أن كان ملكاً:

تبدلّتُ من عزّ ظلّ البنود بذلّ الحديد وثقل القُيُودِ
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديدِ
فقد صار ذاك وذا أدهماً يعضُّ بساقيّ عضّ الأُسودِ[34].

لقد لخص المعتمد بن عباد محنته في هذه الأبيات، وأوضح الأرزاء التي كابدها بعد أن تغير الدهرعليه، فأضحى يُعاني آلام السجون، وثقل القيود، لقد كان المعتمد بن عباد شاعراً عبقرياً ينظم الشعر، وقد حاول أن يجعل حياته كلها قصيدة من قصائد الشعر المترف، وأن يجعل بلاطه منارة للشعر والشعراء، وقبلة لإلقاء قصائدهم، وقد انضمّ إليه شعراء الأندلس وإفريقية وصقلية، ولاسيما عندما هجم النورمان على بلادهم، واستولوا على بعضها.

وكان المعتمد بن عباد رجل حرب افتتح المدائن، ودك الحصون. وقد امتلك قرطبة وامتد سلطانه إلى مرسية. وعندما اشتد عليه أمر الأدفنش (ألفونس السادس) ملك قشتالة استنجد بيوسف المرابطي ابن تاشفين صاحب مراكش، وخاض معه معركة الزلاقة سنة: 1086م، وخرج منها ظافراً. ولكن يوسف لم يلبث أن خانه كما يذكر بعض المؤرخين، وقد عمل سراً على الاستئثار بالملك في بلاد الأندلس، فأثار الفتن على المعتمد، وفتح قرطبة وإشبيلية، فانهزم الملك الشاعر ثم أسر وحُمل مع ذويه إلى أغمات قرب مراكش عند سفح جبال الأطلس، وقد أقام في أسره يتألم، و يندب الحظ، ويصف أيامه الماضية والحاضرة، ويُقارن بين الماضي والحاضر، في شعر كان عصارة نفسه، ولسان وجدانه، حتى وافاه الأجل في دور اتخذت له من الطين تحت أغصان النخيل، وذلك سنة: 488هـ[35]

إن تجربة المعتمد بن عباد في الغربة والحنين والاغتراب تحتاج إلى وقفات، فهي واحدة من أهم التجارب التي تندرج تحت لواء تقلب الأحوال، إضافة إلى القيمة الأدبية والتاريخية لشخصه، والقيمة الفنية لشعره، فتجربة المعتمد بن عباد في السجن والمنفى «تختلف عن كل تجربة، فهو الملك والشاعر ومتى اجتمع الشعر مع الملك زادت الآلام، وطالت المعاناة، و شاعرنا لم يُقاس لوحده، بل قاسمته المعاناة أسرته الصغيرة، أو ما تبقى منها، بعد أن فقد أكثر أولاده، وهو الأمر الذي صعب عليه تحمل هذه الشدة، فكيف لأبٍ أن يتحمل رؤية بناته جائعات، يمشين حافيات؟وكيف لملكٍ أن يرى نفسه يتقلب في التراب بعد أن كان ينعم في الحرير؟ وكيف لأمير شاعر كان يتسابق إليه الشعراء يمدحونه واليوم يقفون على بابه يبكونه؟»[36]

إن الرؤية المأساوية للزمن ظلت تتردد في الكثير من قصائد المعتمد بن عباد التي نظمها بعد الأسر، نرى دائماً تقريباً المضمون نفسه يتردد، حيث إنه يتمحور حول المقارنة بين الماضي والحاضر، حيث يتمحور الفعل في هذه القصائد بين (كان)، و(أصبح)، فبقدر ما كان محققاً، بقدر ما أصبح ناقصاً، بقدر ما تمتد صورة الماضي في ضخامة خصوبتها، وازدهارها وإيجابيتها بقدر ما تتضاءل صورة الحاضر في انكماشيتها وضآلتها وسلبيتها، ولعل هذه المقارنة والمقابلة بين وضعين شادين، الملك/الأسر، هو الذي جعل المتلقي -قديماً وحديثاً- يتجاوب مع تجربته الشعرية الثرية، ويعجب بشعره، لا من أجل وجود عناصر فنية معينة، والتي تظهر عن طريق زخرفية الصورة، وشكلية التعبير، أو كثافة المعنى، وعمقه أو غيرها من العناصر، لأن شعره فقير من هذا الجانب. لكنه يعتمد على عناصر خارجية ذات تأثير خاص في نفس المتلقي، كما في تصويره لمحنته، وعناصر السجن، وإبرازه لقيوده وكبوله، حيث تتولد المفارقة من كونه كان ملكاً، ثم أصبح مقيداً، كان عزيزاً ثم أصبح مهاناً...إلخ، لك استغلاله لبعض المناسبات الزمنية، كذكر الأعياد والمواسم ذات الوقع الخاص، لإحداث قفزة إلى الوراء، حيث العيد في قصوره له معنى آخر مغاير،ثم استغلاله لعنصر الأسرة،مهانة الزوجة المدللة والأبناء الذين صرعوا، ثم تعرض بناته المصونات للإذلال وكيف انتقلن من حالة كونهن مخدومات إلى حالة خادمات[37]

إن النكبات القاسية التي تعرض لها المعتمد بن عباد، انعكست إيجاباً على القيمة الفنية لشعره، وزادت من حظ أدبه كما يذكر بطرس البستاني، لأنه لولاها لما أخرج هذه الأشعار الوجدانية، التي تجعل القارئ يُحس أنها فائضة من أعماق نفسه تصور بدقة وعمق حالة الملك الأسير، وحالة أسرته المزرية أصدق تصوير، فهو بعيد عن التصنع الذي كان معهوداً في أشعاره التي كتبها عندما كان ملكاً، حيث إنه كان يتلهى بالنظم ويذكر ملاهيه وشرابه، ويتغزل غزل متنعم، لا غزل محروم، فلم يظهر في شعره الكثير من التدفق الفياض، حيث يلاحظ من يُقارن بين الشعر الذي كتبه قبل نكبته وبعد أسره أن عاطفته تدفقت أكثر في سجنه،فقد كانت أشعاره في أغمات زفرات متقطعة دوّن من خلالها الأحداث التي كانت تمر به، وتؤثر في نفسه،حيث جاءت عبارة عن مذكرات حزينة لأيام شقائه، يُمكن للدارس لشخصيته أن يتتبع فيها حياته في الأسر،وماكان يمر به من أحوال تثير شجونه، وتهيج شاعريته،كما كان في الآن ذاته ينفس عن كربه[38]

والواقع أن شعر المعتمد بن عباد هو مقطوعات واضحة الألفاظ والمعاني، تتميز بسهولة البناء، والموسيقى المؤثرة القريبة من القلب، والقليلة الضعة، والحق أن تجربته الشعرية تمثل مرآة لحياته في مراحلها المختلفة، وتحولاتها المؤلمة، إذ يستعرض فيه ذكريات شبابه في

(شلب)، ومجالس اللهو والطرب فيها، وأيام مجده وسعده في إشبيلية، كما أيامه الصعاب في(أغمات)، وما واجهه من آلام الأسر وقسوة الدهر عليه وعلى عائلته.

والمعتمد الشاعر لم يضطر كغيره من الشعراء إلى قرض الشعر أملاً في أعطية،أو رجاء في رضى ملك، أو أمير، بل كان يقرضه حباً في الإبداع، والتميز الشعري، وانفطاراً على الفن، وميلاً إلى الجمال، وكان شعره كغيره من الشعراء متعدد الأغراض سهل المعاني، جزل اللفظ، وإن كان قد غلب عليه تقليد شعراء المشرق بأغراضهم ومعانيهم، ولم يكن ذلك عيباً في نظر الأندلسيين، إلا أن أصالته في الشعر تكمن في الإباء والعزة التي ولدها سمو مقامه، ورفعة مكانته، وسناء مركزه الملكي، ومن ميزات شعره أيضاً، رقة العاطفة وأنس التعبير، وهو فوق ذلك شاعر نظم الشعر للفن، وأراده تعبيراً عن الجمال[39]

وقد لاحظت الباحثة فاطمة طحطح أن المعتمد بن عباد وظف عنصر التكرار لتثبيت تجربته وتركيزها، ومنحها عمقاً وشمولية، وهذا ما يتجلى في مجموعة من قصائده مثل قوله:

بكى المُبارَك في إثر ابن عباد بكى على إثرِ غُزلانٍ وآساد
بكت ثُرياهُ، لاغمت كواكبها بمثلِ نُوء الثُريّا الرائح الغادي
بكى الوحيد، بكى الزاهي وقبته والنهر والتاج، كل ذله بادي[40]

وكذلك الأمر في القطعة التي يحِنُ فيها إلى قصوره ويتمنى عودة ذلك الماضي:

فياليت شعري، هل أبيتن ليلةً أمامي وخلفي روضة وغدير[41]

لقد استغل المعتمد بن عباد هذا العنصر أكبر استغلال في قصيدته التي خاطب بها قبره، حيث ترد بكثافة الصفات والنعوت، وقد منح هذا التكثيف شعره تجربة صادقة، كما أكسبها بعداً عميقاً، إذ تندفع لغة القصيدة اندفاعاً تلقائياً تشبهه الدكتورة طحطح بالتداعي، إذ أن شعره في الأسر أملته عليه حرارة التجربة ودافع المأساة أكثر مما أملته الصنعة والتكلف، فشعره يبدو عارياً من الزينة اللفظية والمساحيق البلاغية، ولكنه متوفر على جانب كبير من الصدق النفسي الذي يُطابق الصدق الفني، وهذا الأمر يتولد عن عنصر المفارقة والمقابلة والتوازي الذي يُساهم في إثارة الدهشة عند المتلقي، وإحداث الغرابة، التي يُعدها حازم القرطاجني الغاية الرئيسة من الشعر الجيد،أي حمل المتلقي على التفاعل مع الموضوع والتعاطف معه،أو النفور منه وإحداث المتعة الجمالية عن طريق تأثير الغرابة والعجائبية.

ومن بين العناصر التي حققت الغايات الجمالية والدلالية في شعر المعتمد بن عباد،الأساليب المتنوعة التي يستلزمها المضمون الندبي كمضمون إنشائي تنمو فيه الدلالة (دلالة الحنين)، عن طريق التراوح والتبادل بين الاستفهام والتعجب والتمني والنداء والترجي

والإنكار والترادف، وكلها تأتي بنسب مرتفعة في هذه القصائد، حيث إن المعتمد بن عباد وظف هذه الأساليب لإظهار آلامه وأحزانه، وتفجعه ولهفته، وحنينه العارم، واغترابه عن موطنه وتبدل الأحوال به [42]

ومن بين الشعراء الذين ركزوا على تحولات الزمن، من العز إلى الشقاء، وتبدُّل الأيام عز الدين بن المعتصم بن صمادح، الذين سُجن من قبل يوسف بن تاشفين في غرناطة، فكتب يحن إلى أبيه، ويصف تبدل وضعيته:

أبَعد السّنا والمعالِي خُّمُولٌ ... وبعد رُكُوب المذاكِي كُبُولُ
ومِن بعدِ مَا كُنتُ حُراً عزِيزاً ... أنا اليوم عبدٌ أسِيرٌ ذليلٌ [43]

فمن الواضح من خلال هذين البيتين أن الشاعر قد عبر عن محنته ومأساته بطريقة مُباشرة، فقد كان تحولاً مُفجعاً بالنسبة إليه، فالدهر بدله من عز القصور والنعيم، إلى ذل السجون والقيود.

- تجربة الشاعر الملك يوسف الثالث:

ولعل أبرز الشعراء الذين تتجلى الغربة في شعرهم من ملوك بني الأحمر الملك الشاعر المعروف بيوسف الثالث، الذي هو الثالث عشر من ملوك غرناطة، أبو الحجاج يوسف الناصر (الثالث) بن يوسف الثاني بن محمد الخامس الغني بالله بن أبي الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل الأول بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، وقد كان أديباً ناثراً وناظماً ومصنفاً، وفنون شعره المولديات والرثاء والحماسة والغزل والشكوى [44]، وتتجلى الغربة والحنين في الكثير من أشعاره، فمن يتصفح ديوان يوسف الثالث يقف على جزء كبير من شعره، يروي الأزمات العنيفة التي مرت به، وشاءت الأقدار أن يبتعد عن مقر عرشه ويتركه، فيظل يحن إليه (عرشه)، ويحلم بالعودة إلى الملك، بعد أن تم إبعاده، وسلبت منه مدخراته، وظل يقبع في السجون.

والمُلاحظ أن يُوسف الثالث لم يحظ بعناية كافية من لدن مختلف الباحثين والدارسين، حيث يقول العلاّمة المغربي عبد الله كنون محقق ديوانه في تقديمه له: «... فإذا جئنا اليوم نزف إلى العالم العربي بشرى وجود ملك أندلسي شاعر في العصر الذي عُدم فيه أو فقد حتى الشعراء السوقة من الأندلس، فإنما نكون قد أضفنا إلى تاريخ الشعر في الفردوس المفقود صفحة ذهبية طالما طوتها عوامل الإهمال وعدت عليها عوامل السنين.

حقاً إنه لكشف خطير في عالم الأدب العربي، تتألف خطورته من عناصر أربعة، هي:
أولاً: كونه يُعرفنا بشاعر أندلسي ضرب في الشعر بسهم صائب وهو ملك.

ثانياً: كون هذا الشاعر الأندلسي الملك ساهم في جميع أغراض الشعر العربي وخاصة الشعر الحماسي والسياسي.

ثالثاً: كون شعر هذا الملك الأندلسي مجموعاً كله في ديوان كبير يبلغ عدد صفحاته في نسخته المخطوطة 365.

رابعاً: كونه في هذا العصر الذي تنكرت فيه الأندلس للعروبة، وكانت فيه تلفظ نفسها الأخير»[45]

ويُرجع بعض الباحثين عدم العناية بشعر يوسف الثالث إلى الغموض الذي اعترى الفترة الأندلسية على عهد ملوك غرناطة، إضافة إلى أن المصادر التي تعرضت إلى هذا الملك الشاعر نادرة وقليلة، ويعتبرون أهم حدث تعرض له يوسف الثالث، وهو شاب يافع «يستعد لتولي الحكم بترشيح من والده، أن تمكن أخوه محمد مع بعض أحزابه من الاستيلاء على الملك بعد وفاة يوسف الثاني، فتم اعتقاله إلى سجن (شلوبانيا)، فكان هذا الإبعاد المدبر، من أقرب الناس إليه، جرحاً تولد عنه حزن كبير وألم عميق، وهكذا كانت تجربة السجن من بين الأسباب، التي فجرت موهبة يوسف الثالث وأبانت عن شاعريته. فمعظم القصائد التي قالها في تلك الفترة تشير إلى سجنه وغربته وحنينه إلى أهله وبلدته، ومع مرور الأيام والأعوام تشاء الأقدار أن يخرج يوسف الثالث من السجن، ويبايع وهو في الثانية والثلاثين من عمره، بعد أن قضى نصفها في غياهب السجن»[46]

وقد اشتمل ديوان يوسف الثالث على جميع أغراض الشعر العربي عموماً باستثناء الهجاء، فقد كان للغزل النصيب الأوفر، وقد تميز غزله بالابتعاد عن المجون والمتعة، فهو غزل يتسم بالعفة والصدق، ويبدو في أكثر غزله يُعاني من الغربة والحنين، فقد ظهر شاكياً باكياً ومُتفجعاً، وبعد الغزل يأتي الرثاء، فهو إلى جانب المحنة التي تعرض لها في سجنه فقد زوجته وفقد الأبناء، فتميزت مراثيه بالغربة الشديدة، والألم الفياض.

وفي المرتبة الثالثة يأتي شعر الفخر والحماسة، ثم يأتي ما يُمكن تسميته بالشعر السياسي[47]

يذهب الباحث قاسم الحسيني في رصده لتجربة الشاعر الملك يوسف الثالث إلى أنه لم يتحدث عن أسره وسجنه في صريح العبارة، بل كان يكتفي بالتلميح إليه شاكياً مُستعطفاً، ولعل أنفة الملك ونخوته التي كان يُحسُ بها بالرغم من أنه أقصي منه، كانت تحول دون حديثه عن الأسر وأوضاعه مثلما كان يفعل القيسي.

وتعلقه بالملك وحبه للرئاسة جعله يملأ الدنيا آنيناً وآهات بعد أن أُقصي عنها وأبعد من طرف أخيه محمد، الذي كثيراً ما يتردد في شعره، ولاسيما في قصائده ذات الجرس الحزين[48] يقول الشاعر في إحدى قصائده التي تُبرز غربته وحنينه:

لقد خَاضَ لُج الحُب مِني فتىً غِرٌ   وشبَّ فشِبتُ في ضُلُوعي لهُ جمرُ
وقد كان لي عُذراً إذا الفؤادُ فاحِمٌ   فمَالِي وقد لاحَ المشِيبُ به عُذرُ
وما شِبتُ من سِنٍ ولكن أشَابنِي   صُرُوف زَمَانٍ سوف يَلقى بها الجَبرُ
وإن زَمَناً قد أحَال شَيبتِي   لأجدرُ أن يُعزى إلى فِعلِهِ الغدَرُ[49]

لقد رأت الدكتورة فاطمة طحطح أن تجربة الغربة والحنين عند يوسف الثالث، تختلف عند غيره من الشعراء، حيث تعبر عن رؤيتها لتجربته، بقولها: «إن تجربة الغربة والحنين عند هذا الشاعر تختلف عنها عند الشعراء الآخرين مضموناً وتعبيراً.

لقد أبعدت المؤامرات والدسائس المحبوكة في الظلام هذا الملك الشاب عن مدينته الأثيرة غرناطة مقر ملكه وأهله وأحبابه، وتعرض للإبعاد والسجن والغربة، فعبّر عن هذه التجربة في قصائد من أجمل ما نُظم في هذا العهد، تفيض رقة وعذوبة إلى مدينة غرناطة والأماكن التي كان يرتادها هناك، ويحن إلى من يحب من أهله في تلميح وإشارة دون تصريح، وأغلب شعر هذا الملك في الحنين والذكريات، ووصف ما تعرض له من محنة السجن، والإبعاد عن ملكه، والشكوى من أهله وأهل زمانه، وشعره لصيق بذاته، فكأنه حكاية لمراحل حياته وتسجيل فني للأحداث التي عاشها والتجارب التي مر بها، وأهمها تجربة الغربة والإبعاد، وهي تجربة واقعية عاشها الشاعر، وليس مجرد تكلف لها»[50]

يقول يوسف الثالث واصفاً حاله:

ألا ليت شعري والزَمَانُ بخيلٌ   يخيبُ راجٍ تارةً وينيل
أيَقضِي لشملٍ قد تَبدد أُلفةً   ويُرجى لوصلٍ قد تَقضَى وصول[51]

ومن القصائد التي نظمها أيام غربته، أي أيام وجوده في السجن قصيدة يشكو فيها من الدهر الذي حول أيامه إلى شجن عميق، كما يتجلى فيها الحنين إلى الوطن، حيث يقول:

عَلى أن هَذا الدهر ما زال حاسِداً   كمَا قد علِمتُم من لهُ الصيتُ والذكرُ
لِذلِك رَمَانِي بالبُعَادِ سَفَاهةً   ولكِن لا يَبقَى على حالةٍ دهر
ألاَ إن لِي قَلباً يَحِنُ لِموطِنِي   فيَا لَيتنِي لو صدق الخبر الخبر[52]

وبالنسبة إلى غربة الذات في شعر يوسف الثالث، فليس من الهين حصر جميع القصائد والأبيات التي تجلت فيها النزعة الاغترابية، التي تمس ذات الشاعر وعمق وجدانه، لأن الكثير من الأشعار التي كتبها تتميز بالذاتية المفرطة، وتكسوها عاطفة مرهفة، لذلك لا يعجب المتأمل في تجربة يوسف الثالث الشعرية عندما يجد معجماً لُغوياً مُكثفاً كالوحشة والسهر والغربة والعذاب والبُعد والضنى والفرقة والرحيل والأسى، وما لايعد ويُحصى من

المفردات، التي تتكرر في أحشاء القصيدة باستمرار، وفي أشكال تعبيرية متنوعة، تؤلف ما بينها جملة من الصور النفسية القاسية[53]

يقول الشاعر يوسف الثالث واصفاً اهتياج أشواقه، وضيقه وتبرمه بالوضعية التي يعيشها في محنته:

لي الشوقُ إلفٌ والسُهاد رفيق إذا ما جفا صخبٌ وخاس فريق
رُويداً خليلي وانهض العزم نحوهُم بحرفٍ لها فوق النُجُوم طريق
بليلٍ كأن الشُهُب فيه عواملٌ وقد أشبَهت منه الصفاح بُرُوق
تظلُ لها الآفاقُ كالروضِ خطِرةً وإنسانُ عين الشمسِ فيه غريقُ
على حينٍ لم تُفن الرياضُ بزخرُفٍ ولا الدوحُ قد للغُصُونِ أنيقُ
ألِفنا بها الرمضاء والشمسُ زهرةٌ لتدرك آمالٌ لنا وحقوق[54]

والملاحظ كذلك في تجربة الشاعر الملك يوسف الثالث أنه يتمحور حول:

- الحنين إلى غرناطة ومغانيها.
- الحنين إلى أهله وعتابهم.
- ثم الحنين إلى من يُحب بغرناطة.

كما أنه استطاع أن يُعبر عن تجربته بلغة رقيقة، وتمكن من توليد الكثير من المعاني والصور والتعابير الخاصة المغرقة في الذاتية، وهذا ما أكسب تجربته تميزاً وخصوصية، فهو في بكائه على الديار التي خلت منه يُغرق في الذاتية، كما يُشرك الطبيعة في تجربته وخطابه، وبيثها حبه ولواعجه، كما يتخذ من الرياح والعواصف وسيلة لنقل أشواقه وحنينه[55]

وما يكتشفه المتأمل في تجربة يوسف الثالث الشعرية أن استناده على عنصر الطبيعة في تصوير مشاعره وتجسيد مختلف حالات الغربة والحنين، حيث تجلى الشوق والاستذكار والألم كانت «وراء العديد من إشراقاته الفنية وإجادته التعبيرية، ومن ثمة لا تخلو قصيدة مما أنتجه الشاعر من صور وأخيلة تستمد جماليتها وشعريتها من الطبيعة.

لقد ظهر الشاعر يوسف الثالث في أكثر من موضع دائم الوجد والتفكر والشوق والحنين، لكنه رغم ذلك، لم يمل البحث عن متنفس أينما وجده، ليمنح روحه قسطاً من الطمأنينة والأمان، وشيئاً من الابتهاج والارتياح، ؤوما حنينه المتزايد إلا دليل على الرغبة الدفينة في عودة المياه إلى مجاريها، والطموح إلى انتظام الشمل بعد الفرقة وتحقيق توازنه النفسي، إنه متفائل، رغم كل ما عاناه من عثرات نفسية واجتماعية وغيرها، مما أتعبه وأجهده، ودفعه أحياناً إلى اليأس والتشاؤم. إنه بعبارة مؤمن بدورية الزمن وجدليته، دون أن

يستسلم له كلية، لذلك كان يمنح لنفسه من حين لآخر بصيصاً من الأمل ليطرد عنه اليأس من قلبه، إنه في هذه الرؤية يختلف عن رؤية كل الشعراء، حيث التشاؤم الدائم بلا رجعة»[56]

وبالنسبة إلى الغربة وملامحها الفنية في شعر يوسف الثالث، فقد انتقى مفردات لغته الشعرية من حقول دلالية متنوعة، لعل أبرزها المجال الطبيعي، الذي تجلى في جملة من الألفاظ تكررت في إبداعاته الشعرية المتصلة بالغربة والحنين، ولعل أكثرها ظهوراً(الصباح، الليل، الفجر، الروض،القمر، الزهر،الورد، الأطلال، البحر، الحمام، الأسد، الظبي)، وثمة المجال الإنساني الذي تجلى في أشعار الغربة التي كتبها يوسف الثالث، مثل: (القلب، العين، اليد، الفتى، الصدر، المسهد، المتلهف، البنان..إلخ).

كما ظهرت كذلك المفردات الدينية، مثل: (الصبر، النفس، النظام، والمعتصم، البر،الحرام، الملك..إلخ).

وفيما يتعلق بالمستوى الدلالي، فبعض القراءات النقدية لتجربة يوسف الثالث، تعتبره شديد الارتباط بواقعه، وترى فيه صورة حية للواقع المتردي الذي كانت عليه الأندلس وقتذاك[57]

خاتمة:

لقد شكل موضوع: «الغربة والحنين» ظاهرة فريدة في الشعر الأندلسي، ومن خلال القصائد والأبيات الشعرية التي تعرضنا لها في هذا البحث، تبدى لنا أنه قد تميز بالتفاوت من حيث الجوانب الفنية، والعناصر الجمالية، وقد اتسم المعجم اللغوي الموظف من قبل الشعراء بتوزعه على ضربين: معجم لغوي قوي وجزل، ومعجم لغوي رقيق وعذب وسلس، وقد استطاعت اللغة الشعرية الموظفة من طرف الشعراء الأندلسيين أن تصور الآلام والأرزاء والمحن التي مر بها الشعراء، الذين أبدعوا شعراً يندرج في إطار الغربة والحنين، ولاسيما منهم أولئك الذين ذاقوا مرارة السجن، وألقت بهم الأقدار والظروف في قعر مظلمة، فقد أحاطوا القارئ إحاطة شاملة بالأشجان التي تعرضوا إليها في غياهب السجون، كما تجلى هذا الأمر مع ابن زيدون، والمعتمد بن عباد على سبيل المثال.

لقد عمدوا إلى الأسلوبين الجزل والسهل، والخبري والإنشائي،كما وظفوا جملة من الفنيات من بينها: التقديم والتأخير، والاقتباس من التراث الديني، والحكمي القديم، فقد تأثروا بالقرآن الكريم، والأمثال العربية التليدة، ومن حيث الصور والأخيلة، فقد تمتعوا بخيال خصب، واتسمت رؤاهم الشعرية بالعمق.

وكما لاحظت الدكتورة فاطة طحطح فالقصائد الحنينية الأندلسية اكتسبت الكثير من العمق، والإيحاء من التجربة الإنسانية، وقد توجه الحنين إلى رمزين:

- الحنين إلى الأندلس في المراحل الأولى خصوصاً.

- الحنين إلى المشرق(على المستوى الديني).

وقد اختلفت رمزية الماضي من شاعر إلى آخر، فالماضي في الحنين على المستوى المكاني الوجودي شكل رمزاً للنعيم والجنة التي ولت، وعلى المستوى الديني فهو الوزر والغواية.

وقد انبهرت رؤية الشعراء بالطبيعة، وتميز إحساسهم بالزمن بالقوة، «فالحنين يرتبط بالزمن ارتباطاً قوياً من حيث:

- أن هذه القصائد لا تصف الزمن في ثباته بل في تحوله وصيرورته، حيث يتم استحضار الماضي ومعايشته من جديد شعراً، فيتداخل المتخيل بالواقعي، انطلاقاً من مفهوم حازم ومفهوم هايدجر الذي يعني: الماضي هو الاستذكار، ومن ثم كان ارتباط القصيدة الحنينية بالزمن الماضي هو المهيمن على قصائد الحنين الإنساني، بخلاف قصائد الحنين الديني، حيث يتم الدمج بين الزمنين الماضي والمستقبل.

-هناك -أيضاً- تقاطع بين الزمن الشعري والزمن الخارجي الواقعي، فأحياناً، يستعمل الشاعر صيغاً وأفعالاً للماضي للدلالة على الحضور، أو الاستقبال، وأحياناً يستعمل أفعال (المضارع) الحضور للدلالة على الزمن الماضي، وذلك بغية إحياء هذا الماضي ودمجه بالحاضر.

- أن تواتر بعض الصيغ والروابط وأسماء الإشارة إلى الزمان والمكان، لها دلالة رموزية عالية في بعض القصائد، فهي تعني شدة التوتر بين الخيالي والواقعي، بين العلامة اللغوية والرمز النفسي.... »[58]

كما كشف موضوع الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، عن براعة الشعراء في جملة من الأوصاف، وبرزت فيه روح الابتكار والإبداع لدى شعراء الأندلس، وأكثر شعر الغربة والحنين يقوم على معنى مولد أو مجدد، وقد جاء موضوع الغربة والحنين في الكثير من القصائد التي اطلعنا عليها متداخلاً مع أغراض شعرية أخرى كالغزل، والمدح ، والرثاء والشكوى، والاستعطاف، وشعر السجون، فعندما جاء في غرض الغزل لاحظنا تصوير الشعراء لمحاسن المحبوبة، وإبرازهم لغربتهم وحنينهم إلى الحرية، كما لاحظنا عندما جاء متداخلاً مع وصف الطبيعة تصوير الشعراء لمحاسن الطبيعة، وبثهم شكواهم وغربتهم وحنينهم، كما غلبت على شعر الغربة والحنين لدى بعض الشعراء الصور البصرية التي مُلئت بالأصباغ الخارجية، ولاسيما عند الشعراء الذين اهتموا بوصف المظاهر التي تحيط بهم، لإبراز غربتهم وحنينهم، كما تظهر على أكثر أشعار الغربة والحنين جملة من الرؤى المرتبطة بالتبرم من الحياة والشكوى من الزمن وأرزائه، ومكائد الحساد والأنام الحاقدين، كما لاحظنا في بعض النماذج الشعرية أن هناك جمعاً بين وصف الطبيعة الحية والطبيعة الصناعية مع إبراز الغربة والحنين.

الهوامش:

1- سورة النساء، الآية:66.

2- الربعي بن سلامة:الأدب المغربي والأندلسي بين التأسيس والتأصيل والتجديد، منشورات دار بهاء الدين بالجزائر، وعالم الكتب الحديث بالأردن، ط:1، 1431هـ-2010م، ص:115.

3- عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1976م، ص:273.

4- فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، 1993م، ص:49.

5- فاطمة طحطح:المرجع نفسه، ص:50 وما بعدها.

6- ديوان ابن حمديس، تحقيق: إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت، لبنان(د.ت)، ص:138.

7- المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت:1041ه): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، لبنان، 1388هـ-1968م، ج: 3، ص:29

8- نفح الطيب، ج:2، ص:17 و18، وقد استقينا هذه النماذج عن الموضوعات الثلاثة من كتاب: سامي يوسف أبو زيد: الأدب الأندلسي، ص:146-147.

9- نفح الطيب، ج:3، ص:102.

10- عبد الطيف شرارة:ابن حزم رائد الفكر العلمي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان (د.ت)، ص:59.

11- محمد عويد محمد ساير الطربولي: المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي، ص:256.

12- ديوانه، ص:183.

13- ديوان الأعمى التطيلي، جمع وتحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1963م، ص:89.

14- ديوان الأعمى التطيلي، ص:49.

15- ديوان الأعمى التطيلي، ص:49.

16- عبد الحميد عبد الله الهرامة:الأعمى التطيلي: حياته وأدبه، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ط:1، 1392هـ-1983م، ص:41.

17- ديوان الأعمى التطيلي، ص:236.

18- محمد عويد الطربولي: الأعمى التطيلي: شاعر عصر المرابطين-دراسة موضوعية فنية-، منشورات مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط:1، 1426هـ-2005م، ص:76.
19- ديوان الأعمى التطيلي، ص:222.
20- غارسيا غومس: الشعر الأندلسي: بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، مصر، 1956 م، ص:61.
21- إحسان عباس: تقديم ديوان الأعمى التطيلي، ص: ن وس.
22- ابن بسام: الذخيرة، ج:2، ص:728.
23- محمد عويد الطربولي: المكان في الشعر الأندلسي، ص: 260.
24- ديوان الأعمى التطيلي، ص:2.
25- ديوان الأعمى التطيلي، ص:16.
26- محمد عويد الطربولي:المكان في الشعر الأندلسي، ص:261.
27- ديوان الأعمى التطيلي، ص:53.
28- فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، ص:174.
29- علي الغريب الشناوي: القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة-دراسة فنية- منشورات مكتبة الآداب، ط:1، القاهرة، مصر، 2003م، ص:135.
30- ابن عسكر وابن خميس: أعلام مالقة، تقديم وتخريج وتعليق: عبد الله المرابط الترغي، منشورات دار الغرب الإسلامي ودار الأمان، الرباط، المغرب، 1420هـ -1999م، ص:76.
31- أعلام مالقة، ص:90.
32- رشا عبد الله الخطيب:تجربة السجن في الشعر الأندلسي،منشورات المجمع الثقافي،أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999م، ص:80.
33- رشا عبد الله الخطيب: تجربة السجن في الشعر الأندلسي، ص:82.
34- ديوان المعتمد بن عباد، جمع وتحقيق: رضا الحبيب السويسي، منشورات الدار التونسية للنشر، تونس، 1975م، ص:180.
35- الموجز في الأدب العربي وتاريخة، إعداد لجنة من الأساتذة من الأقطار العربية، دار المعارف، القاهرة، مصر، د، ت، ص:114.
36- آمنة بن منصور: المعتمد بن عباد: شقي الغرباء، مجلة عيدان الخيل للثقافة والعلوم والآداب، السنة الأولى، العدد :3، جمادى الأولى، 1435هـ/ مارس2014م، ص:221.

37- يوسف عيد: دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة والأعلام، منشورات المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، طرابلس، لبنان، 2006م، ص:617 وما بعدها.

38- ديوان المعتمد بن عباد، ص:159.

39- ديوان المعتمد بن عباد، ص:174.

40- فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص:193.

41- بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، منشورات دار الجيل، بيروت، لبنان (د.ت)، ص: 156 .

42- المقري: نفح الطيب، الجزء السابع، ص: 40.

43- علي لغزيوي: أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب الأقصى، 1987م، ص:184.

44- عبد الله كنون:مقدمة ديوان يوسف الثالث، الديوان، تحقيق:عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، مصر، ط:2، 1965م، ص:2.

45- أحمد زنيبر: تجربة الغربة في شعر يوسف الثالث، مجلة المناهل، مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية، العدد: 86، يونيو 2009م، ص: 106.

46- حسناء بوزويتة الطرابلسي:حياة الشعر في نهاية الأندلس، منشورات دار محمد علي الحامي، صفاقس، ومركز النشر الجامعي، تونس، ط: 01، 2001م، ص:138.

47- قاسم الحسيني: الشعر الأندلسي في القرن التاسع الهجري-موضوعاته وخصائصه-، منشورات الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:1، 1986م، ص:255.

48- ديوان يوسف الثالث، ص: .79

49- فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص:284.

50- فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص:284.

51- ديوان يوسف الثالث، ص:80 .

52- ديوان يوسف الثالث، ص: 63.

53- أحمد زنيبر: تجربة الغربة في شعر يوسف الثالث، مجلة المناهل، مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية، العدد: 86، يونيو2009م، ص: 106.

54- ديوان يوسف الثالث، ص:184 .

55- فاطمة طحطح: المرجع السابق، ص:285.

56- أحمد زنيبر: المرجع نفسه، ص:119.

57- أحمد زنيبر: المرجع نفسه، ص:121.

58- فاطمة طحطح: المرجع السابق، ص:343 وما بعدها.